مقدمة إنقسام الكتلة العربية .. وغياب العقلانية التاريخية !

ثمة انقسام عميق الغور فى الإستجابة للواقع العالمى بين أنماط ثلاثة فى الوعى العربى المعاصر، فثمة نمط يضع الهيمنة الأمريكية، والغطرسة الإسرائيلية فى مرتبة تقارب مرتبة القدر الذى لا مفر من الإستسلام له حيث تطغى على لغة الخطاب العربى العام مصطلحات ومفاهيم تزخر باليأس والعدمية تبرر القعود التام عن مواجهة تلك الهيمنة والبقاء فى أسر المألوف من السياسات مع توشيتها بمفردات الشجب والإدانة ذرا للرماد فى العيون. وفى المقابل ثمة نمط لا يتوقف عن الدعوة الى الحرب، والحشد لها بسرعة وليس على مهل، بل وإعلانها أحيانا من على الشاشات الفضائية العربية اللامعة، ويذهب هذا النمط فى أشد فصائله جموحا الى ممارسة الإرهاب كنوع من الإعلان الفردى أو الفئوى عن تلك الحرب المقدسة التى لا تستطيع الأمة ان تعلنها جماعة ضد الظالمين.

وأمام المشهد كله يتوسط النمطين وعى ثالث متوتر لجمهور عربى يغلى حنقا وهو يراقب الخانعين بلا كبرياء، والمتحمسين دون حكمة، والمذبوحين بلا ضمير، فإذا ما ازداد حنقه ووصل الى درجة الغليان فار الى الشوارع متباينة الإتساع والضيق فى المدن العربية والتى تبقى حركة السير فيها رهينة إتجاه واحد ، فإذا به حشد هائل يسكب صرخاته الملتاعة، وعواطفه الساخنة فى شحنات غاضبة قبل أن يعود منهك القوى من حيث أتى، اذا أتيحت له الفرصة أن يعود دون عقاب من قبل حراس الأوطان العربية من الأشاوس والميامين الساهرين على مستقبل الإنسان العربى من المحيط الى الخليج!

غير ان هذا الإنسان لا يعود بعد خروجه الى ما كان عليه قبل الخروج، بل يعود مكتئبا محبطا شاعرا بالعجز عن إصلاح ماسورة المجارى فى شارعه والتى تطفح بالروائح الكريهة، وليس إصلاح النظام العالمى الذى ينضح بالمظالم القبيحة.

وعلى المرء أن يتساءل: لماذا هذا الإنقسام فى عناصر المشهد العربى الممتد ؟ لماذا هناك مستسلمون، وإنتحاريون، ومكتئبون؟ ولماذا هناك دعاة حرب عبثية، ومبرروا خنوع غير محدود، وصامتون؟ كما عليه أن يتساءل: أين هم المجاهدون فى التاريخ بشروطه وحسب منطقه، وماهى البوتقة التى تصهر هؤلاء فى كيان واحد يصير عند مواجهة التحديات وكأنه قلب رجل واحد؟ أين الكتلة التاريخية المنسجمة، برغم تنوع، والفاعلة رغم تعقل، والتى يمكنها الإمساك باللحظة وقيادة الأمة فى مواجهة تحدياتها بسلاسة وحكمة ولكن فى ثقة وتوثب؟

ما الذى يعوق هذه الكتلة عن أن تنشأ وأن تعمل؟ هل لأن العالم العربى الممتد بين محيط وخليج يزخر بمواقف سياسية شتى مختلفة أحيانا، ومتناقضة أخرى بيين المعتدلين والراديكاليين، اليمينيين، واليساريين، القوميين، والإسلاميين؟ أليست الأمم جميعا تشهد مثل تلك الخلافات فى المواقف وتستطيع إدارتها والإفادة منها فى دعم حيويتها، وقدراتها على تحدى ظروف متباينة؟ هل يجب على الأمم ان تفكر بعقل واحد، وتبصر فى اتجاه واحد حتى تتمكن من السير فى طريق واحد وتنجح فى مواجهة تحدى واحد؟

هل كانت بريطانيا غداة الحرب العالمية الثانية تيارا سياسيا واحدا، أو رؤية ثقافية واحدة وهى تواجه الغزو الألمانى حتى تمكنت بعد كر وفر من كسر العدوانية النازية؟ ألم يكن من بينها أحزاب يسارية عمالية كان بعضها شديد الإعجاب بالإتحاد السوفيتى المنهار، وأخرى يمينية محافظة تستلهم المنهاج الإمبراطورى ورأسمالية القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ذات النزعة الكولونيالية، وثالثة ليبرالية حقيقية تتحفظ على النهج الإستعمارى وتتعاطف مع حركات التحرر البازغة آنذاك فى العالم الثالث وخاصة فى جنوب وشرق أسيا، مثلما كان هناك متعصبون ومتعالين وعنصريين ضد هذه الشعوب من ورثة نزعة التمركز الأوربى؟.

كيف التقى هؤلاء جميعا على هدف التحرير وكيف تكتلوا خلف ونستون تشرشل الذى صار رمزا لنضالهم ضد النازية والإحتلال؟

أسئلة كثيرة صعبة ومربكة تثيرها حالة التشرزم العربى الراهن التى لا يمكن تفسيرها بمجرد الإختلاف بين مواقف سياسية استطاعت أمم أخرى أن تديرها وأن تبنى توافقات عامة حولها، وإنما بوجود إنقسام عميق فى رؤية الوجود لتباين أنماط الإنتاج التى تقوم عليها النظم الإجتماعية ــ الإقتصادية العربية والتى تتوزع تقريبا على ثلاثة أنماط كان يفترض أنها متعاقبة عبر التاريخ، ولكن الواقع العربى يشهد تزامنها معا فى الوقت نفسه وفى القرن العشرين ذاته:

أولها هو نمط انتاج الرعى الذى يبدو عابرا للزمن متجاوزا للقرون الى داخل المكان العربى فى صحاريه الممتدة، وبواديه المترامية حيث يعيش قسم من الشعوب العربية برؤية للحياة جوهرها الوحدة، والفردية، والعزلة يصعب معها القول بوجود مجتمع من الأساس ناهيك عن القول بوجود تجانس أو تماسك داخل هذا المجتمع أو بينه وبين المجتمعات الأخرى المجاورة له أو اللصيقة به.

وثانيها هو نمط انتاج الزراعة الذى تعيش به وعليه غالبية البلدان العربية حيث الركون الى الواقع والصبر عليه انتظارا للأمل الكسير فى تغييره بقوة دفع عليا وميتافيزيقية هو عماد رؤية المجتمع الزراعى للوجود، وهى رؤية متماسكة غالبا، وأخلاقية فى العادة، وإيمانية على الأرجح، ولكنها كسولة دائما تصنع ظاهرة الصامتين فى الحياة السياسية.

وثالثها : هو نمط الإنتاج الريعى الذى يمثل النفط عماده الأساسى لفئة مهمة من البلدان العربية فى الخليج، وهو نمط غير عام فى التاريخ أو الجغرافيا العالمية فلا تصطبغ بروحه حقبة تاريخية محددة يتفق حولها المؤرخون كما هو الأمر فى النمطين الأولين، ولا تحيا به

ومن خلاله منطقة على الخريطة العالمية لدرجة أن يصوغ شخصيتها الإقليمية ويلهمها رؤية للوجود أكثر كسلا مما هو لدى المجتمعات الزراعية تخضع غالبا للتقاليد، وتقاوم التغيير بشدة حفاظا على خصوصيتها الموروثة وتركيبها الإجتماعى القبلى، وثرواتها المكتسبة بلا جهد.

ولا شك فى أن ما تصنعه أنماط الإنتاج الثلاث من رؤى للوجود، يبقى بعيدا تماما عن تلك الرؤية الحديثة والتى يبثها نمط انتاج الصناعة فى وعى المجتمعات التى تنهض عليه وتدير حياتها بآلياته سواء على المستوى الفردى حيث الذات الناضجة الباحثة عن دورها فى تأسيس الواقع اذ تقبع فى مركز الوجود صانعة لمصيرها، وكذلك فى تغييره اذ تتصور نفسها بعقلانيتها العلمية، ومرونتها الفكرية، وبملكة القدرة على نقد الذات، قادرة على التحكم فى مساراته تطويرا وتعديلا. أو على المستوى الجمعى حيث المجتمع الذى يتكون من ذوات فردية نشطة وديناميكية وعقلانية أكثر قدرة على بناء المؤسسات الإنتاجية، والتنظيمات المهنية، ثم تحقيق التلاحم بينها فى مؤسسات أكبر تصوغ وتعزز الرؤية والمواقف الفردية وتجد لها القنوات السياسية والصياغات المذهبية عبر الأحزاب السياسية المتنافسة فيما بينها على السلطة وصولا الى مواقع قيادة الدولة والتى يتم تبادلها دوريا بحيث تبقى كل المواقع ومراكز النفوذ والتأثير السياسى والفكرى حية ومشتعلة ومتوثبة الى لحظة القيادة، ومندرجة جميعها فى رؤية متجانسة للوجود تنبع من ضرورة تحقيق الإستمرارية التاريخية لمسيرة المجتمع الواحد، مع خلاف حول التفصيلات السياسية، وحضور للتباينات الثقافية الفرعية بين أطراف وتكوينات محلية تصنع تعددية هذا المجتمع من دون أن تسلبه حس الإتجاه التاريخى أو ما يمكن تسميته بـ "العقلانية التاريخية".

والعقلانية التاريخية مفهوم يعكس نوعا من الوعى بالتاريخ وحركته ومساراته وأنماط الفعل فيه تتوفر له الأصالة والمرونة معا فهو أصيل لأنه ينطلق من أعمق مكونات أو ربما مقدسات الذات الواعية التى تجسد ثوابتها وتحوز مقومات استمرارها، وهو مرن لانه يتوسل دائما عند تفاعله مع الحوادث الجديدة والوقائع المتغيرة بالقدرة على التكيف الخلاق والتى تمكنه من استحداث أفضل الصيغ الممكنة للدفاع عن الثوابت التى ترسخت باعتبارها كذلك فى العقل الجمعى، بالوسائل التى تتيحها اللحظة المتغيرة وباللغة التى يفهمها الفاعلون الآخرون المحيطون بها ودون اهدار لهذه الثوابت.

والعقلانية التاريخية بهذا المعنى تعكس نموذجا للوعى ينحاز للاستيراتيجى على حساب التكتيكى تأكيدا للتاريخانية وينحاز للكلى والشامل والمنظومى على حساب الجزئى والنوعى والفردى تأكيدا للعقلانية.

وفى الحالة العربية تكاد تعنى العقلانية التاريخية إرادتى التعقل، والتكتل اللتين تصوغان نوعا من الوعى يكفل السعى العقلانى والتحرك الرشيد نحو المصالح العربية العليا ويفرض مسئولية تضامنية على الأمة كلها إزاء كافة قضاياها الكبرى فلا يستطيع أى طرف التحرر منها وإلا عاد ودفع الثمن لهذا التحرر الذى يؤول عند الحساب التاريخى باعتباره تخاذلا لا تحررا، فهذه المسئولية التضامنية هى المفهوم / الآلية العملية المعبرة عن الضمير التاريخى للأمة والذى لا يسمح لأحد بالخروج عليه إلا بثمن باهظ قد يدفعه الأبناء وربما الأحفاد ذلك أن التاريخ قد لا يذكر التفاصيل الدقيقة ولكنه يحتفظ بالمسارات الكبرى، كما يحتفظ للإرادات الفاعلة فيها بدورها ومكانتها التى تليق بها.

obeikandl.com

والعقلانية التاريخانية بهذا المعنى يواجهها بالتشويه مفهومان ينحاز كل منهما إلى أحد مقوميها سواء العقل أو التاريخ على حساب الآخر فيفقد الوعى الكامن فى كل منهما إما اصالته وإما مرونته:

الأول منهما هو السلفية التاريخية التى تمعن فى الانحياز للتاريخ حتى تحيله إلى اسطورة متعالية على الواقع تماما تملك قوة تفسير ايديولوجى حتى لأكثر الحوادث عملية ومباشرة، وهى بذلك تعلى البعد الماضى فى الزمن على حساب الحاضر والمستقبل معا مما يؤدى إلى تشوه الروح التكاملية للحركة التاريخية ويفقد الوعى التاريخى مرونته. فمع العدوان العراقى على الكويت وملابساته بداية التسعينات الماضية، تحركت ملكة التساؤل الوجودى فجاءت الاجتهادات العجلى بالعنف السياسى "المتأسلم" فى الجزائر وتونس ومصر ومن قبلهما فى السودان بحثا عن أصالة مفتقدة بدت هى الحل السريع لدى الفصيل الأكثر تطرفا من التيار السلفى، وذلك على نحو أساء الى عقيدة الأمة وعطل نهوضها الحضارى وتكتلها الإستيراتيجى.

وأما الثانى فهو الواقعية البراجماتية التى تفرط فى تسطيح العقل فتحيله من مركب للوعى الشامل إلى مركب للمصلحة المباشرة، ثم تصوغ سقفا محدودا لحساباتها "العقلانية" ازاء الواقع المتغير بالضرورة يكاد يتحدد فى إمتداده الأفقى بالموقف الواحد منفصلا عما قبله أو بعده وفى امتداده الرأسى بالمصلحة المادية السافرة أو المباشرة مما يؤدى إلى تقليص مجال العقلانية نفسها، بالاضافة إلى تشويه تكاملية الحركة التاريخية ايضا بإعلاء البعد الحاضر فى الزمن على حساب بعدى الماضى والمستقبل وهى انحيازات وتشوهات قد تحقق مكاسب عاجلة ولكنها موقوتة سرعان ما تؤدى إلى خسائر فى الأجل الطويل ربما أهم وأعمق من تلك المكاسب الموقوتة مما يفقد الوعى

التاريخى أصالته وربما مرونته أيضا، فبمنتصف العقد هبت رياح تيار عكسى باجتهادات نقيضة أخذت تشكك فى كل محاولة للتأكيد على أصالة الامة تحت وطأة اعتقاد بأنه لم يعد هناك وقت او ضرورة للحديث عن "أمة" من الأساس إذا أردنا كأوطان اللحاق بالعصر.

هذا التيار "البراجماتى" الذى يكتسى بثياب العقلانية السياسية ويتزايد نموه فى ارجاء الوطن العربى انما يقع فى اسر لحظة قنوط تاريخى تكاد تشبه إلى حد كبير تلك اللحظة العدمية التى عاشتها أوربا بعد الحرب الثانية حيث ازدهرت التيارات العبثية فى الأدب والفن والوجودية الملحدة فى الفلسفة لأن سؤال الهوية آنذاك كان مواجها دائما بمركب من الشك الذى طال كل المستويات وتخلل كل اليقينيات التى كانت قد وقرت فى العقل الأوربى وجعلته كذلك فلم تكن هناك حاجة ولا حتى فرصة تحت وطأة الانهيار الكبير للحديث عن يقينيات تخرج من الأرض أو تهبط من السماء.

ولقد تجاوزت أوربا هذه اللحظة العدمية ليس فقط لأن الولايات المتحدة الامريكية "حيوية الغرب آنذاك" كرست طاقتها لاعادة إعمارها بمشروع مارشال، بل لكون أوربا نفسها هى التى صاغت وجسدت لقرون عدة سابقة تقاليد الغرب الكلاسيكية: الأخلاقية والمعرفية والسياسية وتمكنت من خلالها أن تضع نفسها على قمة هرم القوة والثروة والمعرفة، وأن تصوغ مسميات حقب الزمن الثقافى المعتمدة فى الفكر الانسانى كله تقريبا من عصر النهضة الى الاصلاح الدينى، والتنوير وصولا الى الحداثة، وقد استقر ذلك فى وعيها ولاوعيها معا بعكس عالمنا العربى الآن حيث يعانى من فقدان الثقة والجدارة التاريخية ومن روح التشاؤم. ولن يعدم العرب فى كل مراحل تطورهم وإزاء أهم قضاياهم ذلك الجدل المتجدد بين تيارين؛

أولهما يكتسى بثياب **العقلانية التاريخانية** مستندا إلى أصالة الدعوة القومية ورسوخها داعيا إلى الوحدة أو التكتل القومى باعتباره السبيل الأمثل للحفاظ على المصير أيا كانت متغيرات العقود الزمنية والحقب الاستراتيجية التى لا تستطيع أن تسلب التاريخ القومى وعيه الأصيل لأنها فى الحقيقة لا تستطيع أن تغير أو تستبدل فى مقدسات الأمة ومحرماتها. **وثانيهما** يكتسى **بالواقعية البراجماتية** مبررا نفسه بالأزمة العامة المحيطة بالأمة فى تاريخها الحديث وبالعجز المهيمن على نظامها المؤسسى فى الحقبة المعاصرة بحيث يمنعه من عقاب المخطئين أو المنفلتين، داعيا، أى هذا التيار، إلى الإنفلات والخلاص بالذات القطرية من وطأة التغيرات العالمية وسذاجة المثاليات القومية.

غير أن الحساب التاريخى غالبا ما ينتصر لتيار التاريخانية على حساب البراجماتية بمعيار المصداقية وإن كان يقتص من التيارين معا بمعيار المسئولية، ولعل أصدق مثال على ذلك القضية الفلسطينية والتى استمرت معظم هذا القرن وجعا فى قلب الأمة كلها بغض النظر عن المسئول المباشر عن تفجرها بضياع الدولة الفلسطينية وأيضا عن الصراع السياسى الذى أحاط بها عند نشأتها وأثناء تطورها بين القيادات العربية والاتهامات المتبادلة بالخيانة، أو الجدل حول مسئولية الفلسطينيين أنفسهم عنها. ذلك أن التاريخ قد لا يذكر التفاصيل الدقيقة ولكنه سحتفظ بالروح العامة لها، كما يحتفظ للإرادات الفاعلة فيها بدورها ومكانتها التى تليق بها. وقد احتفظ لنا من هذه القضية بالمرارة فى الحلوق، والمسئولية المتجددة عن تصحيح الأوضاع، وهى مسئولية تتوارثها الأجيال وتسفك من أجلها الدماء لأكثر من خمسة عقود وخمسة حروب ولا يزال التاريخ مستمرا...